المعز لدين الله

إمام الشيعة الإسماعيلية
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر

تأليف

حسن إبراهيم حسن

دكتور في الآداب (القاهرة)
ودكتور في الفلسفة ، ودكتور في الآداب (لندن)
أستاذ التاريخ الاسلامي ورئيس قسم التاريخ
بجامعة فؤاد الأول

طه أحمد شرف

ليسانسيه في الآداب ، ودبلوم معهد التربية العالي للمعلمين
ماجستير في الآداب ، ودكتور في الآداب
مدرس التاريخ بمدرسة الخليفة الثانوية
وكلية الآداب

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٧ م

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا — القاهرة

مطبعة الشبكشي بالأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

أخذنا على عاتقنا ، كما ذكرنا فى كتابنا « عبيد الله المهدى » ، أن نحلل الشخصيات الفاطمية الفذة ، وأن نميط اللثام عن كثير من الحقائق التى كانت — ولا تزال — غامضة فى تاريخ المذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين ، وحاولنا أن نحقق هذه الرغبة بتحليل شخصية عبيد الله المهدى ، إمام الشيعية الإسماعيلية ، ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب .

والآن نعرض لتحليل شخصية أخرى من أبرز الشخصيات فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية عامة ، وتاريخ الفاطميين خاصة . وهى شخصية المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمى الرابع .

فكما أن حياة عبيد الله تمثل عصرين مختلفين ، هما : عصر الاستتار ، أى العصر الذى كان فيه الإمام الإسماعيلى مستترا عن أعين العباسيين ، عاملا على توجيه الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى كافة ، لتأسيس الدولة الإسماعيلية المنشودة ، وعصر الظهور ، أى ظهور عبيد الله المهدى ، وجلوسه على العرش الفاطمى ، وحمله الإمامة فى حياته ، وديعة يردها عند وفاته إلى إمام الاستقرار ، وهو القائم ، الذى تمتع بالإمامة فى حياته ، وورّثها ابنه المنصور من بعده — كذلك يمثل عصر المعز لدين الله دورين مختلفين ، هما : الدور المغربى الذى دانت فيه لسلطانه بلاد المغرب وصقلية ، والدور المصرى ، الذى تم فيه فتح مصر والشام ، وأخذت الدعوة الإسماعيلية تنتشر فى بلاد الحجاز وفارس واليمن ، وفى الهند نفسها .

هكذا رسم عبيد الله المهدى للخلفاء الفاطميين ، السياسة التى ساروا عليها فى الدور المغربى ، ومهد المعز لدين الله السياسة التى سار عليها خلفاؤه فى الدور المصرى .

كان عصر المعز لدين الله حافلا بمظاهر القوة والعظمة . ولا غرو ، فقد استطاع ، بما أوتيه من ذكاء فذ ومهارة حربية ممتازة ، أن يوحّد بلاد المغرب كافة تحت رايته ، وينتصر على الأمويين وحلفائهم الروم فى غير موقعة ، حتى كان الأمويون يخشون على بلادهم من أن تقع فى قبضته ؛ وسارع الروم إلى محالفته ، خوفا من أن تقع قلورية فى يده . كما حاول الفاطميون فى عهده أن يتخذوا من جزيرتى صقلية وإقريطش قنطرة يعبرون منها إلى إيطاليا شمالا ، وإلى مصر والشام شرقا . واتخذ من فتح هذه البلاد وسيلة لقلب الخلافة العباسية السنية ، وإحلال الخلافة الفاطمية الشيعية محلها .

وقد عول المعز على نشر الدعوة الإسماعيلية فى العالم الإسلامى ؛ فأنفذ دعاته إلى الآفاق ، وزوّدهم بمنشوراته أو محاضراته فى المذهب الإسماعيلى ، وألف هو وأفذاذ دعاته كتب الباطن ، كما كانوا يسمونها . وكانت منشورات المعز تلقى على أنصار هذا المذهب فى بلاد المغرب ، وكانت هذه المنشورات أو المحاضرات أشبه بمجالس الحكمة التى كانت تلقى فى مصر ؛ وفى قصور الخلافة ومساجدها يتلقى الإسماعيلية أصول مذهبهم عن طريق المنشورات والكتب . كما كانت احتفالات الفاطميين الرائعة فى عهد المعز لدين الله ، كالاحتفال بصلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، ومولد النبى ، ومولد على وابنيه الحسن والحسين ، ومولد الإمام الجالس على العرش ، مثلا احتذاه من جاء بعده من الخلفاء . وكان لنظم الحكم الدقيقة ، التى سار عليها المعز لدين الله ، أثر بعيد فى رقى بلاده . ولا غرو ، فقد كان يمثل الحاكم المستنير ، الذى يجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه يسعى دائما لإسعاد شعبه ، ويعتبر الحكم أمانة من الله ائتمنه عليها ، وأن زعامته المسلمين واجب ألقاه على عاتقه انتسابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فجاءت نظم الحكم التى سنها مثلا أعلى فى الدقة والإتقان ، حتى فاقت أمثالها عند الأمويين والعباسيين .

وإن مدينة القاهرة المعزية التى تعد الآن من أمهات مدن الشرق ، والجامع الأزهر أقدم جامعات العالم ، ليدينان بوجودهما إلى المعز لدين الله ، ويشهدان على نهضة الفنون فى عهد المعز ، الذى فاق خلفاء عصره من الأمويين والعباسيين .

وقد بحثنا شخصية المعز لدين الله والمذهب الإسماعيلى فى عهده من النواحى

الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، مستعينين بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية المخطوطة والمنشورة ، وألحقنا بالكتاب كثيرا من الوثائق التى تصور تاريخ هذا العصر أروع تصوير . وذيلنا الكتاب بثبت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وقد أخذنا على أنفسنا أن نوالى البحث فى تاريخ المذهب الإسماعيلى من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما أدخل عليه من تطورات ، وذلك فى عهد المستنصر بالله الفاطمى والحسن الثانى النزارى ، أحد أجداد سمو أغا خان .

وإننا فى هذا المقام ، نهدى أجزل الشكر وأجمله ، إلى حضرة صديقنا الوفى الأستاذ مصطفى السقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإمدادنا بكثير من المعلومات التاريخية والأدبية ، وحضرة حسن أحمد محمود افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب ، لمساعدته القيمة فى عمل الفهارس ؟

٢ يناير ١٩٤٨

حسن ابراهيم حسن طه أحمد شرف

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ٣
محتويات الكتاب ٦

الباب الاول — المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولى الخلافة .

١ — بيت المعز ... ... ٢ — مولد المعز ونشأته ... ٩-١٣
٣ — تولية المعز العهد والخلافة ١٩

الباب الثانى — المعز لدين الله الفاطمى فى بلاد المغرب

١ — علاقة المعز بالأدارسة وزعماء المغرب ٢٤
٢ — علاقة المعز بالأندلس ... ٣ — علاقة المعز بجزيرة إقريطش ٣٦-٤٦
٤ — علاقة المعز بجزيرة صقلية ٥ — أشهر ولاة المعز بصقلية ٥٢-٦١

الباب الثالث — المعز لدين الله وفتح مصر

تمهيد ٦٧
١ — العوامل التى ساعدت المعز على فتح مصر ٦٩
(ا) نجاح الدعوة الفاطمية فى مصر والمشرق ٦٩
(ب) ضعف الدولة العباسية ٧٦
(حـ) ضعف الدولة الإخشيدية فى مصر (ء) قوة الدولة الفاطمية ٧٩-٨١
٢ — جهود المعز فى فتح مصر ... ...
(ا) مسير جوهر إلى مصر (ب) فتح مصر ٨٤-٨٥
٣ — المعز لدين الله وفتح بلاد الشام ... ...
(ا) عوامل فتح الشام ... (ب) جعفر بن فلاح وفتح الشام ٩١-٩٣
٤ — النزاع بين المعز والقرامطة ... ...
(ا) علاقه المعز بالقرامطة قبل ثورة الحسن الأعصم ... ٩٨
(ب) العوامل التى أدت إلى قيام الحرب بين القرامطة والفاطميين فى مصر والشام ١٠٣
(حـ) الصراع بين القرامطة والفاطميين إلى أن وصل المعز إلى مصر ١٠٦
١ — جعفر بن فلاح والحسن الأعصم ١٠٦
٢ — جوهر الصقلى والحسن الأعصم إلى أن وصل المعز إلى مصر ١١٢
(ء) النزاع بين المعز والحسن الأعصم ١١٥

صفحة

(هـ) أفتكين التركى والمعز لدين الله الفاطمى ١٢٧

الباب الرابع — نظم الحكم فى عهد المعز لدين الله

١ — النظام السياسى

تمهيد ١٣٤

(ا) الخلافة ... ... (ب) الوزارة ١٣٥-١٤٥

٢ — النظام الإدارى

(ا) ولاية الأقاليم ... ...

١ — فى بلاد المغرب ٢ — فى مصر والشام والحجاز ١٥١

(ا) فى مصر (ب) فى بلاد الشام (حـ) فى الحجاز ١٦٠-١٦٣، ١٦٥

(ب) الشرطة ١٦٦

٣ — النظام المالى ١٦٨

٤ — النظام الحربى ١٧٥

(ا) الجيش ... ... (ب) البحرية ١٧٥-١٨٤

٥ — النظام القضائى

(ا) القضاء ... (ب) الحسبة ... (حـ) المظالم ... ١٩٠-٢٠٠، ٢٠٣

الباب الخامس — الفن والثقافة وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى عهد المعز لدين الله

١ — الفن فى عهد المعز

(ا) فى بلاد المغرب ... (ب) فى مصر ٢٠٧

١ — تأسيس مدينة القاهرة ... قصر المعز ... ٢١٠-٢١٧

٢ — بناء الجامع الأزهر ٢١٩

٢ — الثقافة فى عهد المعز

(ا) الثقافة العلمية ٢٢١

١ — ابن هانىء الأندلسى ٢ — تميم بن المعز ... ٢٢٥-٢٣٠

(ب) الثقافة المذهبية

١ — ثقافة الدعوة الإسماعيلية فى المغرب ٢٣٢

٢ — الدعوة الإسماعيلية فى مصر ٢٤٠

الدعوة الفاطمية فى المساجد ٢٤٠

صفحة

١ — الدعوة الفاطمية فى مسجد عمرو ٢٤٢
٢ — الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون ٢٤٢
٣ — الدعوة الفاطمية فى الأزهر ٢٤٦
٤ — الدعوة السرية وأعلام الدعاة ٢٥٢
أبو حنيفة النعمان . ... جعفر بن منصور اليمن ٢٥٨-٢٦٨
٣ — أهم مظاهر الحياة الاجتماعية ٢٧٢
(ا) مظاهر الترف والثروة (ب) الحفلات والأعياد ٢٧٣-٢٨٤
٤ — أخلاق المعز وصفاته ٢٨٧
٥ — خاتمة القول فى المعز لدين الله ٢٩٠

ملاحق الكتاب

الملحق ١ - رسالة المعز إلى أبى الحسن على الإخشيد يطلب إليه إنجاد مسلمى إقريطش ٣٠٣
الملحق ٢ - عهد جوهر الصقلى إلى المصريين ٣٠٤
الملحق ٣ - رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطى ... ٣٠٧
الملحق ٤ - موقف المعز من أهل سجلماسة ٣١٧
الملحق ٥ - نصيحة المعز لعامل سجلماسة ٣٢٠
الملحق ٦ - تهديد المعز إمبراطور الدولة البيزنطية لاستيلائه على إقريطش ٣٢١
الملحق ٧ - كلام فى مجلس خوطب به رسول الأموى ٣٢٢
الملحق ٨ - رد المعز على عبد الرحمن الناصر الأموى ٣٢٥
الملحق ٩ - نقض المعز كتاب الناصر ٣٢٧
الملحق ١٠ - بعض التشريعات الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله ... ٣٣٩
الملحق ١١ - ماينبغى أن يستعمله الدعاة إلى الأئمة صلوات الله عليهم فى دعائهم إليهم ٣٤٢
الملحق ١٢ - فى الحث على طاعة الفاطميين ٣٤٥
الملحق ١٣ - مدح المعز كتامة ٣٤٦
الملحق ١٤ - اشتغال الأئمة فى صلاح الأمة ٣٤٨
الملحق ١٥ - توقيع فى ذكر عاشوراء ٣٤٨
الملحق ١٦ - النهى عن الغلو فى أولياء الله ٣٤٩
الملحق ١٧ - نصيحة المعز لعماله ٣٥٠
الملحق ١٨ - نصيحة المعز لأحد العمال ٣٥١
الملحق ١٩ - فى ترتيب استعمال العمال على العمل ٣٥٢
مصادر الكتاب ... ... فهارس الكتاب ٣٥٣

المعز لدين الله

الخليفة الفاطمى في المغرب ومصر

(٣٤١ — ٣٦٥ هـ)

الباب الأول

المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولى الخلافة

١ — بيت المعز :

يعتبر المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمى الرابع ، من كبار رجال عصره ؛ فقد بذ أقرانه ومنافسيه ، علما وسياسة وحربا . لهذا لا نغلو إذا قلنا إن نفوذ الدولة الفاطمية بلغ أقصى مداه فى عهده ، وإن الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بذلك التراث المجيد الذى تركه لهم هـــذا الخليفة . ومن ثم أخذت الدولة الفاطمية فى الضعف والانحـــلال بعد وفاة العزيز بن المعز ، وسقطت فى ميدان التنافس بين السنية والشيعة ، بعد أن تركت أثرا لا يمحوه توالى الأيام والأعوام .

وقد ساهم المعز لدين الله فى إنعاش الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ومصر ، واستولى على جميع البلاد الإفريقية على البحر الأبيض ، عدا طنجة وسبتة ، وتوغلت جيوشه فى بلاد الشام ، وهددت بغداد ، حاضرة العباسيين فى ذلك الحين . واستطاع هذا الخليفة أن ينظم هذا الملك الواسع ، بما سنه من النظم الإدارية الحازمة . ولم يكتف بذلك ، بل نهض بالناحية العلمية ، والثقافة المذهبية ، حتى أصبحت المنصورية فى بلاد المغرب ، والقاهرة فى مصر ، كعبة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة . وعمل على تقدم النهضة الاجتماعية فى بلاده ، فعظمت دولته ، وتدفقت عليها الأموال ، وعمها الرخاء .

ولكى نرسم صورة واضحة عن حياة المعز لدين الله ، لابد لنا من أن نتعرض للكلام على مولده ونشأته ، ونبين أثر البيئة التى ترعرع فيها . ولا غرو ، فقد نشأ المعز فى ذلك البيت الذى كان يرنو ببصره إلى الزعامة والملك ، وحاول تحقيق ما كانت تصبو إليه نفوس العلويين ، برغم ما وقف فى طريقهم من عقبات . لكن هذا البيت ظل يعمل في السر أحيانا ، وفى الجهر أحيانا أخرى ، حتى تُوِّجت جهوده بقيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، على يد عبيد الله المهدى . ثم خلفه القائم والمنصور . فمكّنا لهذه الدولة الفتية . حتى إذا جاء المعز لدين الله ، وجد الأمور موطأة ممهدة لتشر نفوذه ، وبسط سلطانه فى المغرب والمشرق . وقد أحرز المعز نجاحا هائلا فى هذه السبيل ، ولا نغلو إذا قلنا إنه يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية ، لأنه وطد سلطانها ، ووسع رقعتها ، ووضع نظام الحكم الذى أصبح نبراسا يهتدى بهديه من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والسلاطين .

ينتسب المعز لدين الله إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، وإلى على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . فهو فاطمى ، لأنه من سلالة فاطمة ، وعلوى لأنه من سلالة على . وقد اشتهر أفراد بيت المعز بالكفاح فى سبيل زعامة المسلمين وإمامتهم ، لأن علىّ بن أبى طالب وأبناءه من بعده . كانوا يرون أنهم أحق من سواهم بالملك وإمامة المسلمين . ولذلك قامت الحروب بين العلويين وبين الأمويين والعباسيين . حتى حمل الإسماعيلية لواء الكفاح حول منتصف القرن الثانى للهجرة ، وتكللت جهود هذا الفريق بقيام الدولة الفاطمية - على ما رأينا - فى سنة ٢٩٦ هـ .

وبقيام الدولة الفاطمية ، انتهى أخطر دور مر على الأئمة الإسماعيلية العلويين ، فانقضى « دور الستر » ، وجاء بعده « دور الظهور » . وبعبارة أخرى . انقضى دور التجارب والمحن . وحل محله دور الاستقرار والعمل(١) .

وإذا كان أبو القاسم بن الحسين ، الإمام المستتر(٢) ، قد نشأ وترعرع فى دور

---

(١) أنظر ما كتبناه عن الأئمة ونوابهم فى كتاب « عبيد الله المهدى » للمؤلفين ص ٢٥ - ٩٢ .

(٢) الامام المستتر هو الذى يستطيع توريث الامامة لسواه .

الستر (١) ، وشاركه فى ذلك عبيد الله الإمام المستودع (٢) ، ونالها من الأذى شىء غير قليل فى سلمية ، وفى طريقهما إلى بلاد المغرب ، ثم فى بلاد المغرب نفسها . فقد جنى كل منهما ثمار ما غرسه آباؤه وأجداده ، وتمتع كل منهما ـ فى عهد عبيد الله ـ بفترة ، سادها الاستقرار ، فاستطاع عبيد الله أن يجلس على عرش الدولة الجديدة ، وأن يرأس الدعوة الإسماعيلية خليفة ؛ كما استطاع أبو القاسم أن ينعم بولاية العهد ، ويطمئن إلى أن العرش الفاطمى سيئول إليه بعد وفاة المهدى . وهكذا شاهد هذان الإمامان : الإمام المستودع ، والإمام المستقر ، عصرين متناقضين متباينين ، هما عصرا الستر والظهور .

على أن المعز لدين الله لم يشارك جده الإمام القائم ، وهو الإمام المستقر ، ولا نائبه عبيد الله المهدى ، الإمام المستودع ، فى الجمع بين عهدى الستر والظهور ؛ فقد ولد فى أخريات حياة عبيد الله ، وتنسم الحياة فى عهد هذا الإمام المستودع . وبعبارة أخرى كان لوجود المعز فى دور الظهور أثره فى حياته ؛ فقد استطاع أن يتغذى بلبان الحرية ، وينعم بحياة أبناء الخلفاء وأولياء العهود ، فلم يتعرض لتلك المحن التى تعرض لها جده القائم ، ولا مساعد جده الإمام المهدى . ولا غرو فقد كان لقيام الدولة الفاطمية أثره الكبير فى وضع حد لنهاية هذه الآلام ، التى قاساها أفراد البيت العلوى فى دور الستر ، كما كان بداية عهد ازدهار وسعادة ، تمتع بهما هذا البيت الذى طالما صب عليه الأمويون والعباسيون من بعدهم كل ألوان الظلم والعسف .

وكان المعز لدين الله علويا لحما ودما ، فلم يكن من أبناء ميمون القداح ـ حجج الأئمة الإسماعيلية فى دور الستر ـ لأنه لا يمت إلى عبيد الله المهدى ، الخليفة الفاطمى بصلة النسب والقرابة ، وإن كان يمت إليه بصلة التعليم الروحى حسب . فقد رأينا عند دراستنا تاريخ الأئمة المستورين ونوابهم ، ونسب عبيد الله الفاطمى (٣) ، أن هناك فرعين متمايزين : فرعا خاصا بالأئمة ، يبدأ بالحسين بن على ، وينتهى بالإمام القائم ، وهو الخليفة الفاطمى الثانى ؛ وفرعا خاصا بنواب الأئمة ، ويبدأ بسلمان الفارسى ،

---

(١) ويبدأ باستتار محمد بن إسماعيل ، وينتهى بقيام الدولة الفاطمية .

(٢) الامام المستودع : هو الذى يتمتع بالامامة فى حياته ولا يورثها غيره .

(٣) انظر كتاب عبيد الله المهدى للمؤلفين ص ١٥٦ - ١٦٩ .

وينتهى بعبيد الله المهدى . وقد دخل فرع الأئمة فى دورين اثنين ، كان أئمة الدور الأول معروفين للناس جميعا ، يثورون على الأمويين حينا ، ويلجئون إلى إخفاء ما فى نفوسهم حينا آخر . وليس هناك ما يمنع من تسمية هذا الدور من أدوار تاريخ الإسماعيلية ، بدور الظهور الأول .

وأئمة هـــذا الدور الذين يعترف بهم الإسماعيلية هم : على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق . وأما أئمة الدور الثانى ، فلم يكونوا معروفين لكافة الناس ، كانوا يعملون فى استتار ، وينظمون الدعوة بعيدين عن أعين الرقباء ، مستعينين بدعاتهم وحججهم ، ويلتف حولهم مستجيبوهم الذين يغرقون فى حبهم ، ويغمرونهم بكثير من أموالهم . وبذلك استطاع هؤلاء الأئمة أن يكونوا مجتمعات إسماعيلية بحتة ، فى كافة أرجاء العالم الإسلامى . وكانت هذه المجتمعات تموج بالذين يخلصون لأئمة هذا الدور ، أى دور الاستتار ، ويتفانون فى حبهم ، دون أن يعرفوا أشخاص أئمتهم على وجه التحقيق .

ذلك أن هؤلاء الأئمة قد حاطوا أنفسهم بسياج من التخفى والكتمان ، حتى لا ينالهم ما نال آباءهم وأجدادهم من إلقائهم فى غيابات السجون وإزهاق أرواحهم . وأئمة هذا الدور ، أى دور الستر ، هم : محمد بن إسماعيل ، ويلقب بالمستور حينا ، والمكتوم حينا آخر ، ثم ابنه الإمام عبد الله الأكبر ، ثم الإمام أحمد التقى ، ثم الإمام أبو القاسم بن الحسين الوفى ، الذى تسمى بعد ذلك القائم بأمر الله . وجلس على عرش الخلافة الفاطمية بعد وفاة عبيد الله المهدى ، ثم ابنه المنصور اسماعيل والد المعز .

وهكذا ينتسب المعز لدين الله إلى أحـــد فروع البيت العلوى ، وهو الخليفة الرابع عند طائفة الإسماعيلية ، ويفصل بينه وبين على بن أبى طالب اثنا عشر إماما ، منهم ستة فى دور الظهور الأول(١) ، وأربعة فى دور الستر الأول(٢) ، واثنان فى دور الظهور الثانى(٣) . وعلى هذا لم تضع عبيد الله بين أئمة الاستقرار الإسماعيليين . ولا بدع

(١) وهم الحسن ، والحسين ، وعلى زين العابدين فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٢) وهم محمد بن إسماعيل ، وعبد الله الأكبر ، وأحمد التقى ، والحسين الوفى .

(٣) وهما القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) والمنصور إسماعيل أبو المعز (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) .
ويقصد بهذا الدور الفترة التى تبدأ بقيام الدولة الفاطمية فى سنة ٢٩٦ هـ ، وتنتهى باختفاء الامام الطيب ابن الخليفة الآمر سنة ٥٢٦ هـ .

فى ذلك ، فإنه ينتمى إلى بيت غير البيت الذى ينتمى إليه القـائم وسواه من الأئمة أجداد المعز .

ولندع إحدى نساء المهدى توضح لنـا حقيقة هذا البيت الذى ولد فيه المعز ، ونشأ وترعرع ؛ فقد كانت تقول ، « لولد المهدى ونسائه بعد وفاته: والله لقد خرج هذا الأمر من هذا القصر ، يعنى قصر المهدى بالله (صلع) ، فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر ، يعنى قصر القائم بأمر الله ، فلا يزال فى ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا(١) » . ولو كان أبناء القائم من ذرية المهدى ، لمـا عبرت هذه السيدة بذلك ، لأنه يدل على أن ذرية المهدى غير ذرية القائم ، كما يدل على أن المعز لدين الله لا ينتمى إلى بيت عبيد الله ، أى إلى البيت القداحى ، وإنمـا ينتسب إلى جده القائم وأبيه المنصور ، وهما من سلالة أئمة الاستقرار .

٢ — مولد المعز ونشأته :

ولد أبو تميم معد بن المنصور ، بمدينة المهدية ، قاعدة الفاطميين ، فى ١١ رمضان سنة ٣١٩ هـ ، وذلك فى أواخر عهد الخليفة المهدى بالله ؛ فأدرك فى حياته ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم : المهدى ، والقائم ، والمنصور . وعاش فى عهد إمامة الاستيداع (من سنة ٣١٩ إلى سنة ٣٢٢ هـ) ، ثم فى عهد إمامة الاستقـرار (من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٤١ هـ) . وكانت أم المعز أم ولد ، وكان فى دور الرضاع فى الوقت الذى أخذ فيه نفوذ المهدى يبلغ غايته ، فتربى هذا الطفل فى قصور المهدية ، ينعم بما ينعم به صغار الأمراء .

وكانت تبدو على معد أمارات النجابة منذ نعومة أظفاره ، حتى لقد اختبر المهدى ذكاءه وأعجب به ، وتنبأ بأنه سيكون له شـأن كبير . يخبرنا المعز بذلك فيقـول : « إنى لأذكر يوما حملت فيه إليه (أى إلى المهدى) ، وأنا يومئذ فطيم أعقل الكلام(٢) »

---

(١) النعمان المغربى : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٢١ .

(٢) ولد المعز فى رمضان سنة ٣١٩ هـ ، ومات المهدى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ . ومعنى ذلك أن المعز عاش فى حياة المهدى سنتين ونصف سنة فقط . وإذن هل كان المعز فى هذه السن المبكرة بحيث يستطيع أن يعى ما دار بينه وبين المهدى من حديث ؟ وإذا صح ما ذكره المعز فانه يدل على ذكاء خارق ، استطاع به أن يعى هذا الحديث بعد وقت طويل .

وأحفظ ما يكون ، فتناولنى وقبلنى ، وأدخلنى تحت ثوبه ، وكشف عن بطنى وألصقها ببطنه . ثم أخرجنى وبارك على ، وسألنى عن حالى ، وأجلسنى فى حجره ودعا لى بمأكل ؛ فأتيت بطبق من فضة مذهب ، فيه موز وتفاح خريفى وعنب ؛ فوضع بين يدى ، فلم أتناول منه شيئا ، فأخذه بيده ، وناولنيه ، فأخذته بيدى ، فقال : امض به فكل منه أنت ما فيه ، وأعط الطبق فلانة ، وذكر بعض البنات ، وهى يومئذ فى مثل سنى ، فقلت له : لا ! بل آخذ أنا الطبق وأعطيها مافيه . فضحك (المهدى) ، وتعجب من انتباهى لذلك ، ودعا لى بخير . . . وقال : سيكون له شأن (١) » .

وهكذا عاش المعز فى المهدية والمنصورية حاضرتى الفاطميين بإفريقية ، وتمتع برؤية الأئمة الخلفاء الثلاثة ، حتى كان المهدى يجتمع به ويجده القائم وأبيه المنصور ، ويقول : « ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هـــذا المجلس : اجتمع فيه أربعة أئمة » .

وقد سن المهدى سنة جديدة فى تربية أولياء العهد والأمراء ، تتلخص فى أن يتعهد الجد ، لا الأب ، ولى العهد ، الذى سيصبح « ولى الزمان » ، وخليفة فى الوقت نفسه . ولذلك كان المهدى يهتم بتربية المنصور أكثر من اهتمام أبيه القائم به . كما كان القائم يهتم بتربية المعز اهتماما بالغا ، يفوق اهتمام المنصور به ، حتى لقد قال المعز نفسه عن أبيه المنصور والخليفة المهدى : « ما علمت أحدا ممن يقرب من المهدى كان يحل محل المنصور... وإن المهدى (صلع) كان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة(٢) » .

ويبدو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يعدون أولياء العهود إعدادا مذهبيا دينيا ، فيحتمون عليهم البحث فى كتب الباطن ، ويشجعونهم على الإمعان فى فهمها . وكان الجد يتولى هذه المهمة بنفسه ، ويتعهد ولى العهد . وبهذا كان المهدى يعلم أن القائم سيخلفه ، وأن المنصور سيخلف القائم ، وكذلك كان الخليفة القائم يعلم أن المنصور سيخلفه فى العرش والإمامة ، وأن حفيده المعز سيخلف المنصور .

ويمتاز الدور الفاطمى المغربى بإباحة اطلاع الأمراء ، مثل المعز وسواه ،

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .

على أسرار المذهب الإسماعيلى ، وإلمامهم بها إلماما يجعلهم صالحين لزعامة تلك الجماعة . من الناحية الروحية والإدارية معا ، حتى إننا نرى المهدى يهتم اهتماما بالغا بتعليم المنصور وتهذيبه ، ولا يفارقه إلا فى القليل النادر : « فكان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة » ، ويعطيه الكتب المذهبية ليدرسها ، حتى يكون على علم تام بالمذهب ومبادئه . وكانت هذه الكتب تسمى كتب الباطن ، أو كتب الطب الحقيق .

انظر إلى المهدى يقول للمنصور ، وقد أعطاه كتابا من كتب الباطن : « يا بنىّ ! ذلك هو الطب الحقيق ، وهو طب الأرواح فى الدار الآخرة ، به يعالج من ألمها ، ويداوى من سقمها ... انظر فيه ، واعرف معانيه ، واحفظ أصوله ، فإن فيه أصولا من العلم الشريف فإذا أنت حفظت ذلك ، وأتقنت معرفته ، فاصرفه لأعطيك غيره [1] » . وكذلك نرى الخليفة القائم يقصر جهوده على تنشئة حفيده المعز ، الذى كان موضع حبه وإعجابه . ومات القائم فى سنة ٣٣٤ هـ ، وقد أخذ المعز منه كثيرا ، فى الناحيتين السياسية والروحية .

وقد نسأل عن السبب الذى حدا الخلفاء الفاطميين على الاهتمام بالأحفاد أكثر من الأبناء ، فيحدب المهدى على المنصور ، ويحنو القائم على المعز . والواقع أن هذا النوع من تعليم الأئمة وإرشادهم أحفادهم ليدل على مهارة سياسية ؛ فإن الآباء كثيرا ما كانوا ينجبون أبناء من أمهات متعددة . ولو أظهر الأب عطفه على واحد منهم ، وآثره على من سواه ، أغضبهم من ناحية ، وأثار حفائظ أمهاتهم من ناحية أخرى ؛ وهذا يؤدى إلى قيام المنافسة بينهم .

فها هو ذا القائم يلقى على حفيده المعز درسا نافعا فى طاعة الآباء ، والحدب على الإخوة ، ويوضح له سبب محبته له ، وإيثاره إياه ، فيقول : « اسمع ما أقول لك . إن أخوف ما أتخوفه عليك ، من أبيك . . . ما أعلمه من ميله إلى أمهات إخوتك ، فأخشى خشية المشفق عليك ، أن يعدل بهذا الأمر عنك إلى غيرك منهم . وكلاّ ! لا يفعل الله ذلك ، إن شاء الله . ولكن متى رأيت منه أثرة عليك أو ميلا عنك ، فاصبر صبر من أحسله الله محلك ، وأقامه مقامك ، فأنت صاحبها . ولولا صغر

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٥٤٢ .

سنك [١] اليوم ماعدتك [٢] وعن قريب تصير إليك ، فأوصيك بتقوى الله ، واحتمال ماحملت ، والصبر على مضض مايؤتى إليك . وإخوتك إخوتك ، فأحكم معاملتهم فى يومك وغدك [٣]»... (وقال) : الإخوة الإخوة ، (يتهول أمرهم لما كان ناله المعز صلى الله عليه وسلم ، فى سياسة أمرهم). ومن هنا نرى أن الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ، كانوا يعملون على تهيئة الأمراء من الأبناء والأحفاد ، وإعدادهم للحكم والسياسة ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا للدولة نفرا من خيرة الخلفاء ، كالمعز لدين الله.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد كان الخليفة القائم يأنس إلى المعز ، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية ، ليزوده بالخبرة التى تجعل منه حاكما ممتازا وسياسيا بارعا ، وليكفل بذلك ولاء أشياع مذهبه ، ورجال بلاطه وولاته وغيرهم من ذوى المناصب العالية فى دولته . ويقول صاحب كتاب المجالس والمسايرات : «كان المعز لدين الله ﷺ ، يحل من القائم والأئمة من ذريته الطاهرين ، محلا خصيصا منذ نشأته ، وكان يقربه ويدنيه ، ويسر إليه دون أبيه . وكان رسوله وسفيره إلى الناس فيما يأمر به ، وينهى عنه ، ويحتاج إليه . فإذا خلا كان بين يديه ، ومتى غاب عنه أرسل إليه» [٤].

وهكذا نال المعز ، قبل أن يلى الخلافة قسطا غير قليل من التعليم ؛ وكان من أثر اتصاله بجده القائم وغيره من رجال الدعوة أن تعمق فى دراسة أصول المذهب الإسماعيلى ، وألم بكثير من كتب الباطن . ولما كان المعز على شىء كبير من الذكاء ، عمل على تعلم كثير من اللغات ؛ فتعلم اللغة الإيطالية القديمة (اللاتينية) ، لقربه بلاده من إيطاليا . ولا غرو ، فقد أخذت جيوش الفاطميين فى صقلية تغزو إيطاليا الجنوبية ، وخصوصا قلورية (كالابريا) ، وإيطاليا الشمالية ، وتستولى على جنوة نفسها. وكأن المعز كان يطمع فى الاستيلاء على إيطاليا ، فتعلم لغتها .

---

(١) كان عمر المعز حين وفاة القائم ، أى حين أوصاه هذه الوصية ، لا يزيد على خمس عشر سنة لأنه مات فى سنة ٣٦٥ هـ ، وله من العمر ست وأربعون سنة .

(٢) أى ما جاوزتك

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

ومهما يكن من شيء ،فقد استطاع المعز أن يتعلم هذه اللغة فى صباه حين كان فى جزيرة صقلية ، مما يدل على أنه لم يكن من الأمراء الخاملين ، بل كان كثير الترحال والاختلاط بالناس . كما تعلم اللغة الصقلبية التى كانت سائدة فى هذه الجزيرة . وإذا علمنا أنه كان من جند المعز الذين غزوا مصر فرقة كبيرة تسمى فرقة الصقالبة ، وأن أساتيذ المعز فى طفولته كانوا من هؤلاء الصقالبة ، أدركنا لماذا تعلم هذه اللغة . وعلى هذا النحو تعلم المعز اللغة السودانية ، لأن السودانيين كانوا يكونون جزءا كبيرا من جيشه ، ولأنه قد عول على فتح مصر وضم السودان إليها . كذلك تعلم المعز لغة البربر ، لأنه يقيم بين أظهرهم . وقد رأى أن يتعلم لغتهم ليتقى شرهم . وهكذا أتقن المعز اللغة العربية إتقانا نراه فى تلك الملاحق التى نقلناها عن النعمان . ثم « أخذ - كما يقول المقريزى (١) - نفسه بحفظ اللغات الأخرى ، فابتدأ بالبربرية فأحكمها ، ثم بالرومية ، ثم بالسودانية ، ثم بالصقلبية » .

ويظهر أن ذكاء المعز وهو أمير ، قد اشتهر لدى الخاص والعام ، وأنه عرف فى جميع مراحل حياته بحل المعضلات ، والتغلب على كل ما يشكل على سواه من الأمراء والعلماء ، يدل على ذلك ما ذكره أبو حنيفة النعمان من أن المنصور خرج ذات يوم ، ومعه المعز وكثير من حاشيته ، وخرج النعمان معهم كذلك ، وقد عرضت على المنصور شكاية من رجلين من أصحاب الضياع ، ليفض النزاع بينهما ، فأشكل الأمر على الخليفة وعلى النعمان نفسه ، وعلى كل من كان معهم ، حتى لقد قال النعمان لزميل له : «لقد اشتبه علىّ أمرهما ، وحسبك ما ترى من توقف أمير المؤمنين (صلع) ، والمنصور ، من الفصل بينهما » ، ثم جعل يدلى لزميله بما يدل على كفاية المعز فيقول : إن المتخاصمين « لو وقفا بين يدى الأمير - أعنى المعز لدين الله (صلع) - لفصل بينهما . . . والله ما ضاق علىّ أمر قد رأيته ، ولا اشتبه عندى وجه الحق فيه ، فرفعته إليه ، إلا أجابنى عنه قبل استيفائه آخره ، أو عند ما يستوفيه ، بجواب ما خطر ببالى ، بعد الروية له ، والفكر فيه الأيام الكثيرة ، والليالى العديدة ، بما

(١) اتعاظ الحنفا ص ٦٥ . ويخبرنا المقريزى أيضا أن المظفر الصقلبى ، معلم المعز لدين الله ، كان مدلا عليه ، لأنه أستاذه ومعلمه ، وأنه ثار ذات يوم فى وجه المعز ، فنطق بكلمة صقلبية وعاها المعز فى ذهنه . ولما تعلم اللغة الصقلبية : « ومرت به تلك الكلمة ، فاذا هى شتيمة ، فبقيت فى نفسه » ، حتى قتل المظفر الصقلبى هذا هو ورفيقا صقليا آخر (اتعاظ الحنفا ص ٦٥) .

لا أشك فيه أنه الحق الذى لا وجه له غيره ، (١) . ولما أدرك الخليفة المنصور عجزه عن الحكم بين المتخاصمين ، أحال الأمر على الأمير المعز ، ففصل بينهما سريعا ، فصلا يدل على ذكائه .

ولم يكن المعز فى حياة أبيه بعيدا عن الإدارة والحكم ، بل كان أبوه يستشيره فى أمور الدولة ، كما كان الموظفون يرجعون إليه فى دقائق أعمالهم . وكان يختلط بهم ، ويقف على أخطائهم ، ويراقبهم عن كثب . وكان أهم ما يعنى به المعز فى حياة أبيه المنصور ، الإشراف على هيئة القضاء فى بلاده ، فيولى النعمان قاضى قضاة المنصور شيئا غير قليل من الاحترام . ومما يدل على اهتمام هذا الأمير بالقضاء ، حثه النعمان وجميع القضاة على عدم الأخذ بشهادة الكاذب ، وذم القضاة الذين يخالفون ذلك (٢) . كما كان القضاة يستشيرونه فى كثير من الأمور ، حتى إن النعمان كثيرا ما كان يلجأ إليه حين تلتبس الأمور عليه .

ولما كانت السقيفة التى اتخذها المنصور للنظر فى القضايا تضيق بالمتقاضين ، أشار المعز على أبيه ببناء مكان فسيح يتسع لهؤلاء المتقاضين . وهكذا عمل المنصور على تنشئة المعز تنشئة قوامها المرانة والدربة والخبرة ، وتزويده بالوسائل التى تجعل منه أميرا مستنيرا وخليفة قادرا على تصريف شئون دولته .

وتدل هذه الوصية التى أوصى بها المنصور ابنه المعز على عظيم ثقته به ، وتقديره مواهبه . ويقول المعز : « لما احتضر المنصور بالله ﷺ جعل يوصينى بما أعمل عليه بعده ... وأوصى إلى رجل من عبيده كان قائما بين يديه ، ثم نظر إليه وقد دمع ، فقال : والله لتعاينن من مولاك هذا ، ومن جميع أفعاله وسيرته ، وما يجريه الله عز وجل من الخير على يديه ، ويصنعه من الجميل له ، ويؤيده به ، ويمكنه له ، ويفتحه عليه ، ما لم تر ، ولا سمعت قط مثله . فقال الرجل : يامولاى ! وأى شىء بقى له من ذلك لم تفعله أنت ؟ قال : كثير والله جدا ، هو فى القوة لم يظهر بعد إلى الفعل ، يظهره الله له ، ويجريه على يديه » (٣) .

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : جـ ١ ص ١٦ — ١٧ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٩٠ — ٩١ .

وترجع ثقة المنصور بابنه الأمير معد إلى أمرين : أولهما ، توقد ذكاء المعز وحسن تدبيره ، وثانيهما، مبادىء العقيدة الإسماعيلية التي تنص على أن الإمام اللاحق يفوق الإمام السابق علما ودراية وتجربة . وفى ذلك يقول المنصور : « إنه لا يأتى إمام إلا أعطاه الله فضل الإمام الذى مضى قبله وعلمه وحكمته ، وزاده مثل ستة أسباع ذلك » (١) .

وإذا علمنا أن المعز لدين الله أفاد كثيرا من اتصاله بجده القائم ، وانتفع بعلوم أبيه وحكمته ، أدركنا أنه كان أحق الفاطميين بزعامة العالم الإسماعيلي بعد المنصور، حتى إن جده القائم عرف ذلك فيه وقال له : « لولا صغر سنك ، لجعلت هذا الأمر إليك ، ولكن أنت أبو تميم حقا كما كنيت » (٢) ، أى أن التئام أمور الدولة واتساعها سيتم على يديه . وهكذا رشح المنصور ابنه المعز للإمامة والخلافة معا ، لا لأنه كان أحب الناس إليه ، بل لأنه كان أقدر أبنائه على النهوض بأعباء الخلافة والدعوة .

٣ — تولية المعز العهد والخلافة

إن نظام ولاية العهد عند الفاطميين ليؤلف فصلا رائعا فى تاريخ الخلافة الفاطمية فى الدور المغربى ، فإن انتقال الإمامة من الخليفة المهدى إلى الخليفة القائم ، كان معناه رد الوديعة إلى صاحبها الشرعى . فقد أدى المهدى إلى القائم « أمانته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التى استودعها الله إياه له ، لم يجعل لسائر أولاده فيها نصيبا ، بل أقر الحق فى مقره ، وجعله فى مستقره » (٣) . ومن ثم لم يكن بد من أن يضع أئمة الاستقرار الذين يدينون بالخلافة القائم نظاما لانتقال الإمامة والخلافة معا من شخص إلى آخر.

---

(١) النعمان ج ١ ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

(٣) الداعى إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٧٠ .

وقد سن القائم فى نظام ولاية العهد سنة طيبة سار عليها خلفاؤه من بعده ؛ ففرض على كل من الخلفاء الفاطميين أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ، وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس إليه . ويقول الداعى إدريس : إن الخليفة القائم الفاطمى أشهد « جؤذرا » أحد المخلصين من أنصار الفاطميين على ذلك وقال له : « ياجؤذر ! إنه لايحل أن يدفن الإمام الإمام الذى قبله ، حتى يقيم حجة لنفسه ، وليس يحل ذلك لى حتى أقيم حجتى . وقد ارتضيتك لهذه الإمانة دون جميع الخلق ، وتلا عليه قوله سبحانه : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها [1] » إلى آخر الآية . ثم قال : ادن منى ! فلما دنا منه قال : هات يدك ! فبسط يده وهو مرعوب لهيبته ، وقال : إنا أخذنا عليك عهد الله وغليظ ميثاقه ، أنك تكتم عنى ما أظهره وأكشفه لك . قال : نعم ياموالاى صلى الله عليك ! فقال له : ولدى إسماعيل المنصور هو حجتى وولى عهدى ، فاعرف حقه وقدره ، واكتم أمره وسره ، حتى أظهره فى الوقت الذى يريد الله فيه ظهوره [2] » .

ومن الغريب أن المنصور لم يعرف أنه ولى العهد ، إلا قبل وفاة القائم بثلاثة أيام (سنة ٣٣٤ هـ) ، مع أنه قد نص على توليته العهد منذ اثنتى عشرة سنة ، أى فى سنة ٣٢٢ هـ [3] . لذلك لما دنت منية القائم أظهر « جؤذر » عهد المنصور لجميع الإسماعيلية ، فدانوا له بالطاعة . ولابد أن يكون الخليفة المنصور قد فعل يوم وفاة أبيه القائم مع ابنه المعز ما فعله أبوه معه ، أى أنه ولى المعز عهده ، وأخفى أمره على الناس ، إلا بعض خواصه المقربين إليه . وكان المعز فوق ذلك يعرف أنه ولى العهد ، منذ أخبره القائم قبيل وفاته بأن الأمر سيئول اليه بعد أبيه ؛ مما يجعلنا نعتقد أن تولية المعز العهد بعد المنصور ، كان أمرا مقررا بين القائم والمنصور نفسه ؛ وإن فى تلك العبارة التى ذكرها القائم للمعز ما يؤيد هذا حين قال له : « فأخشى خشية المشفق عليك أن يعدل (المنصور) بهذا الأمر إلى غيرك منهم (أى من

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٧٢ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٦٨ .